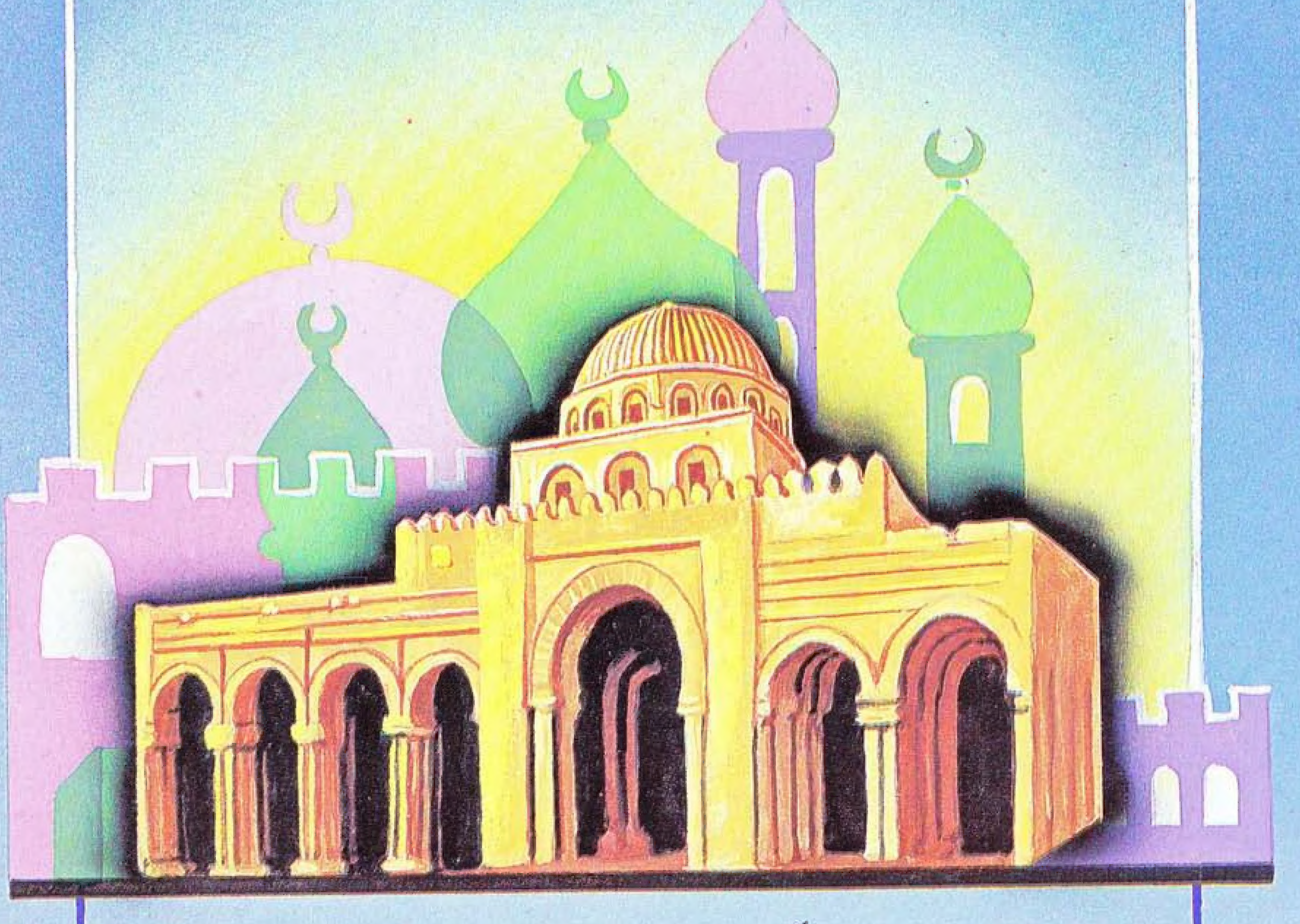
مدائن إسلامية (٥)
من سن ٨ : ١٢



القَيْرَوَانُ

أحمد سويلم

سفير

مدائن إسلامية

(٥)

القيروان

أحمد سويلم

رسوم

حسين مجاهد

الهوايات مفيدة جدا للإنسان .. فهى تفجر طاقاته .. وتزيده معرفة ومتعة .. ويمكن أن يكون للإنسان أكثر من هواية .. وكلما كانت الهواية قريبة من الاحتياجات العقلية والنفسية كلما كانت أكثر إفادة .

وإبراهيم طالب بالصف الثانى الإعدادى .. وهو يهوى المراسلة .. وعن طريق المراسلة استطاع صديقنا إبراهيم أن يعرف الكثير عن العالم .. إنه يدير حواراً فوق الورق بينه وبين أصدقائه فى بلاد كثيرة من العالم .. يعرفهم ببلده .. ويعرفونه أيضًا ببلادهم .. إنها رحلات مفيدة فوق الورق يعرف إبراهيم من خلالها كل شىء .

ومنذ شهرين تعرَّف إبراهيم على أحد الأصدقاء من مدينة القيروان بتونس .. فأرسل إليه بطاقة عليها الجامع الأزهر .. وحكى لصديقه التونسى نشأة القاهرة وبناء الجامع الأزهر .

وها هو يتلقى بطاقة من صديقه لمسجد عقبة بن نافع بالقيروان .. وخطابًا مطولا عن تاريخ هذه المدينة وتطورها .

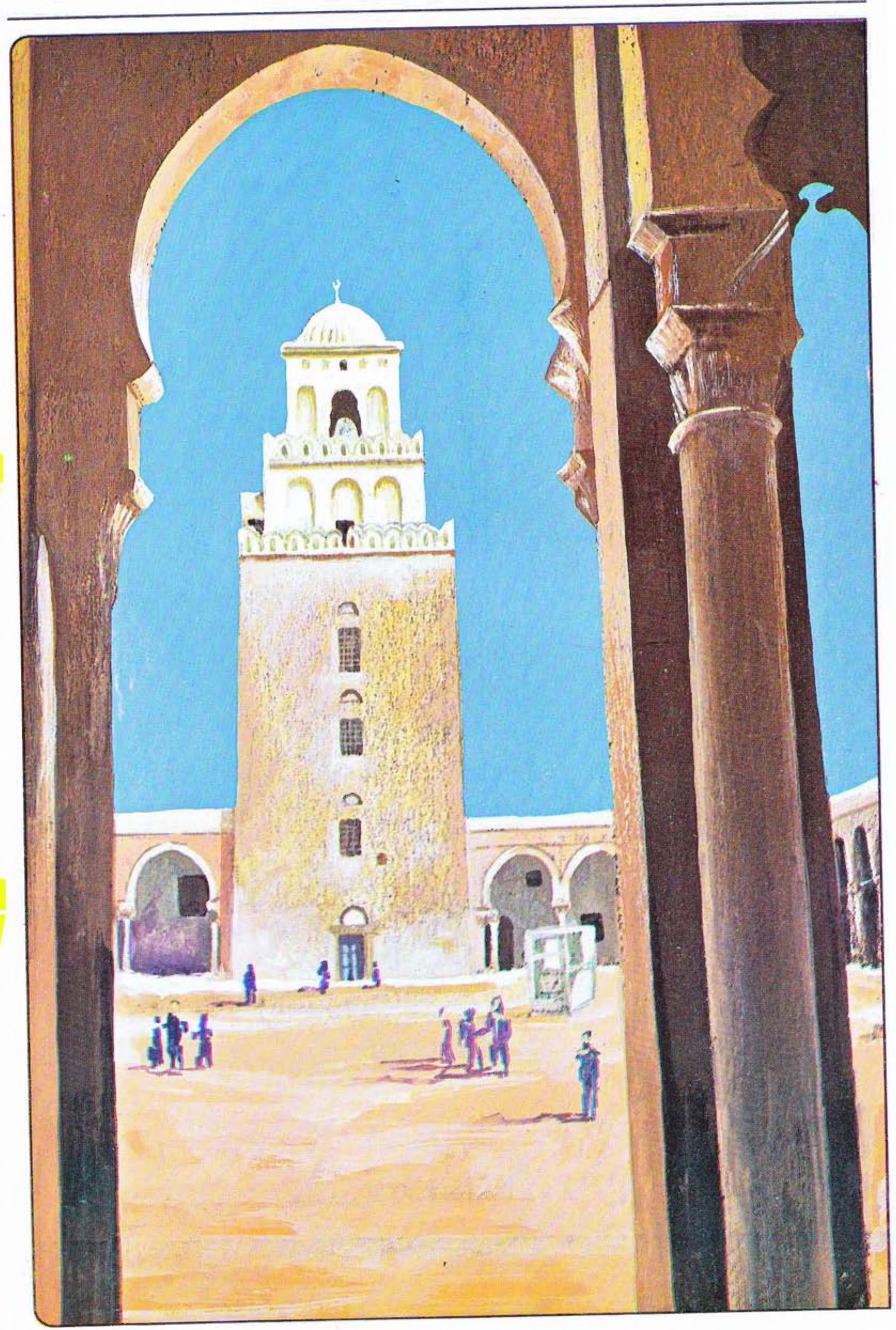
ويلاحظ إبراهيم من البطاقات المصورة أن مئذنة هذا المسجد عجيبة غير مألوفة .. فهى ليست مثل هذه المآذن التى تُرفع إلى السماء فى اتساق طولى واحد .. وإنما هى تتكون من ثلاثة طوابق : الطابق الأدنى مربع القاعدة .. تنحدر جدرانه إلى الداخل فيقل عرضها كلما ارتفعت .. لكى يعلوه الطابق الثانى .. وهو مربع الشكل أيضًا .. لكنه أصغر من الطابق الأول .. ثم يعلوه الطابق الثالث ليكون أصغر من الثانى .. ثم تعلو الطوابق الثلاثة قبة صغيرة .

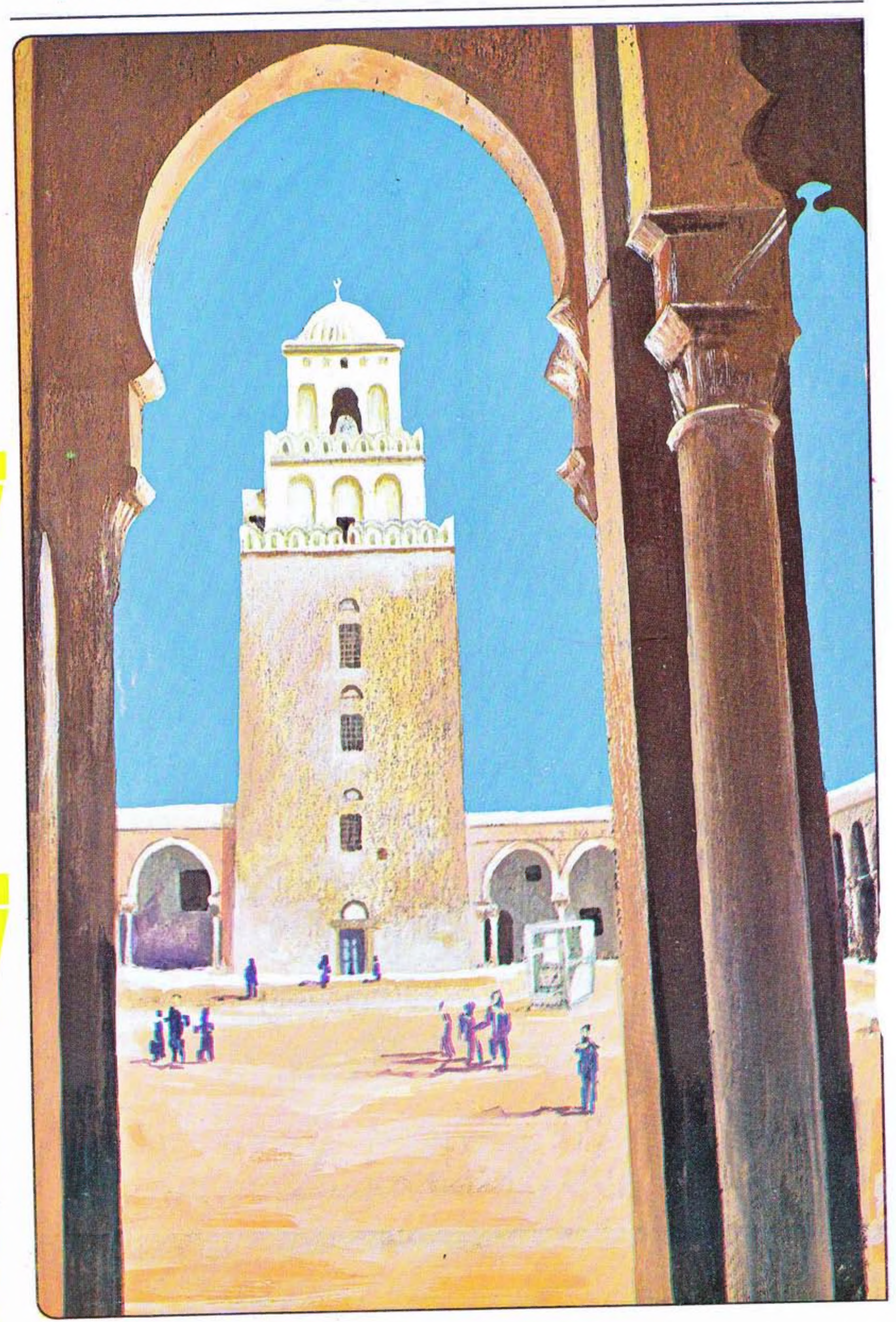
إنه يتذكر جيداً أنه رأى بعض المآذن فى القاهرة تشبه إلى حد كبير هذا الأسلوب من البناء .. منها مئذنة مدرسة قلاوون .. ومئذنة مسجد الجيوشى .

وقد اعتاد إبراهيم أن يقرأ رسائل أصدقائه .. ثم يقرأ أيضًا ما يقع تحت يده من معلومات أخرى .. ويذهب إلى أستاذ التاريخ الإسلامى ويتحاور معه ويستزيد معرفة بالتاريخ .

وتجذبه حكاية القيروان ..

إنها من المدن التاريخية العربية التى لعبت دوراً كبيراً فى انتشار الحضارة الإسلامية فى الشمال المغربى .





وتطل القيروان من نافذة التاريخ الإسلامى .. لتعود بنا إلى عصر الخليفة عثمان بن عفان رضى الله عنه .

ونستمع إلى أحد أصحابه يحكى عن إحدى الليالى .. فيقول :

– خرجت من منزلى ليلا أريد المسجد .. فرأيت عثمان – رضى الله عنه – يصلى .. فصليت خلفه .. ثم رأيته يطيل الجلوس والدعاء .. ثم قام منصرفًا إلى بيته .. فقمت وراءه واستوقفته .. وسلمت عليه ، وسألته :

– ماذا بك يا أمير المؤمنين ؟ وما الذى يجعلك تطيل الدعاء هكذا ؟

قال عثمان :

– يا أخى .. إنى استخرت الله – تعالى – فى ليلتى هذه أن أبعث جيشًا إلى إفريقية .. وسأجمع فى الصباح صحابة رسول الله ﷺ .. وأعرض عليهم ما رأيت .

وبعد مشاورة طويلة مع الصحابة .. يرسل عثمان جيشًا وأطلق عليه جيش العبادلة .

ويستوقف صديقنا إبراهيم أستاذه سائلا ؟

– لماذا سُمِّى هذا الجيش بجيش العبادلة ؟

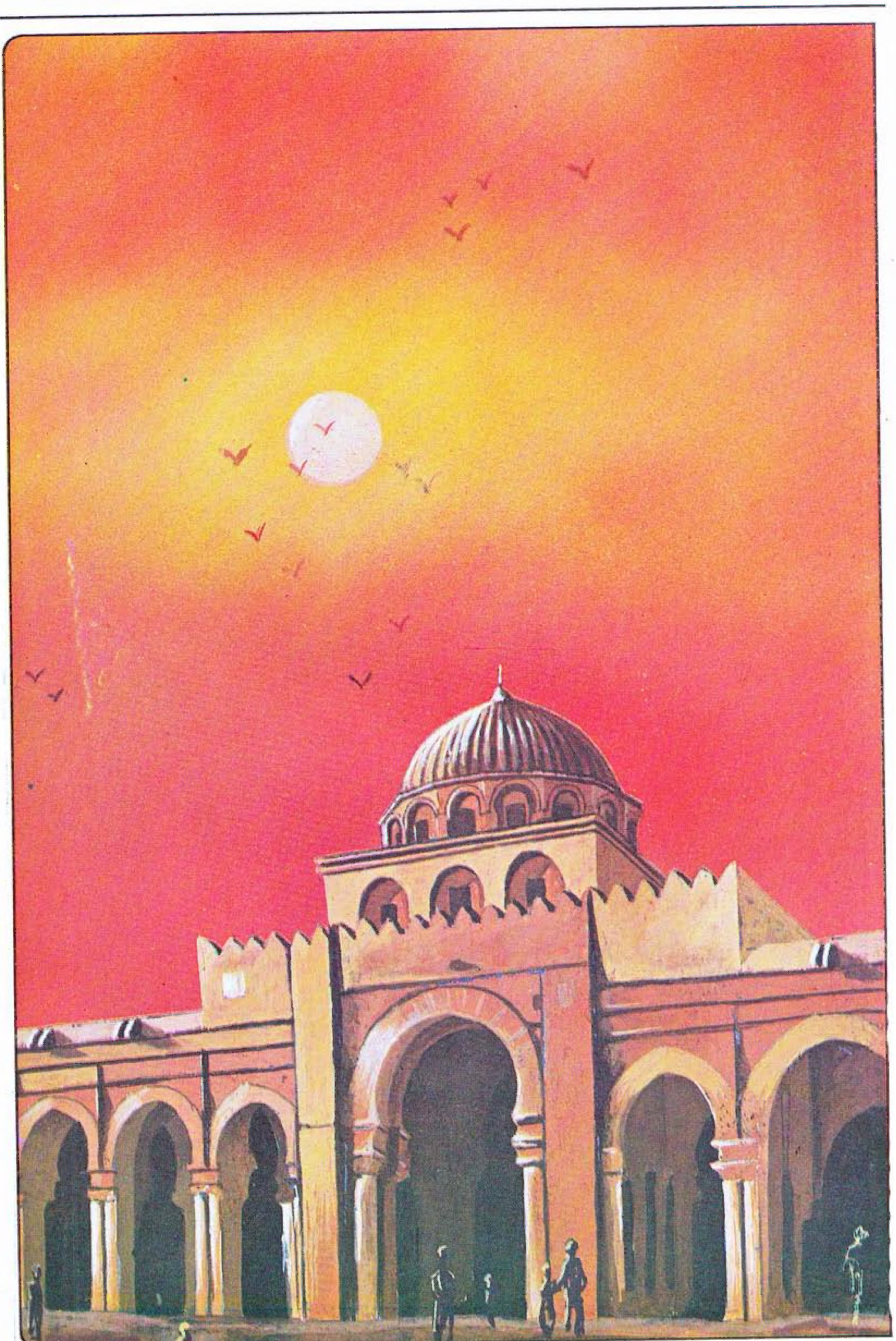
قال الأستاذ :

– لأنه كان يضم عددًا من القادة الذين يُسمون بعبد .. ومنهم : عبدالله بن الزبير .. وعبدالله بن عمر بن الخطاب .. وعبدالله بن عمرو بن العاص .. وعبدالله بن عباس .

وكان على رأس هذا الجيش عبدالله بن سعد أيضًا .

وكانت معركة فاصلة فى موضع يُقال له : «سبيطلة» مع جيش الحاكم الرومانى جريجوريوس سنة (٢٧ هـ = ٦٤٧م) .. انتصر فيها المسلمون .

ويعود عبدالله بن سعد إلى مصر لتظل إفريقية على حالها حتى عهد معاوية بن أبى سفيان الذى عزل عبدالله بن سعد وأقام مكانه معاوية بن حُديج .



ثم يرسل معاوية بن أبى سفيان عقبة بن نافع فى عام (٤٨هـ = ٦٠٨م) ليكون واليًا على برقة .. وكان عقبة يتطلع إلى مد نفوذ المسلمين نحو الغرب .. فطلب من معاوية أن يعينه على تحقيق هذه الرغبة .

ويستجيب معاوية .. ويرسل إليه جيشًا كبيرًا بلغ عدد جنوده عشرة آلاف مقاتل .. لكن عقبة استطاع أن يضيف إليه الكثير من مسلمى البربر وغيرهم .. حتى فتح الله عليه هذه البلاد .

ويدخل أصحاب عقبة عليه يتشاورون :

قال أحدهم : ماذا أنت صانع أيها الأمير ؟

قال عقبة : أريد أن أتخذ مدينة هنا يكون بها عسكر المسلمين .

قال آخر : ولماذا أيها الأمير ؟

قال عقبة : إن أهل إفريقية إذا رجع المسلمون عنهم عادوا إلى دينهم .. ولست أرى لنزول المسلمين بين أظهرهم جدوى إلا إذا استقروا فى مكان .. فابحثوا معى عن مكان يكون به عسكر المسلمين وأهلوهم .. وأموالهم .. ليأمنوا أى عدوان .

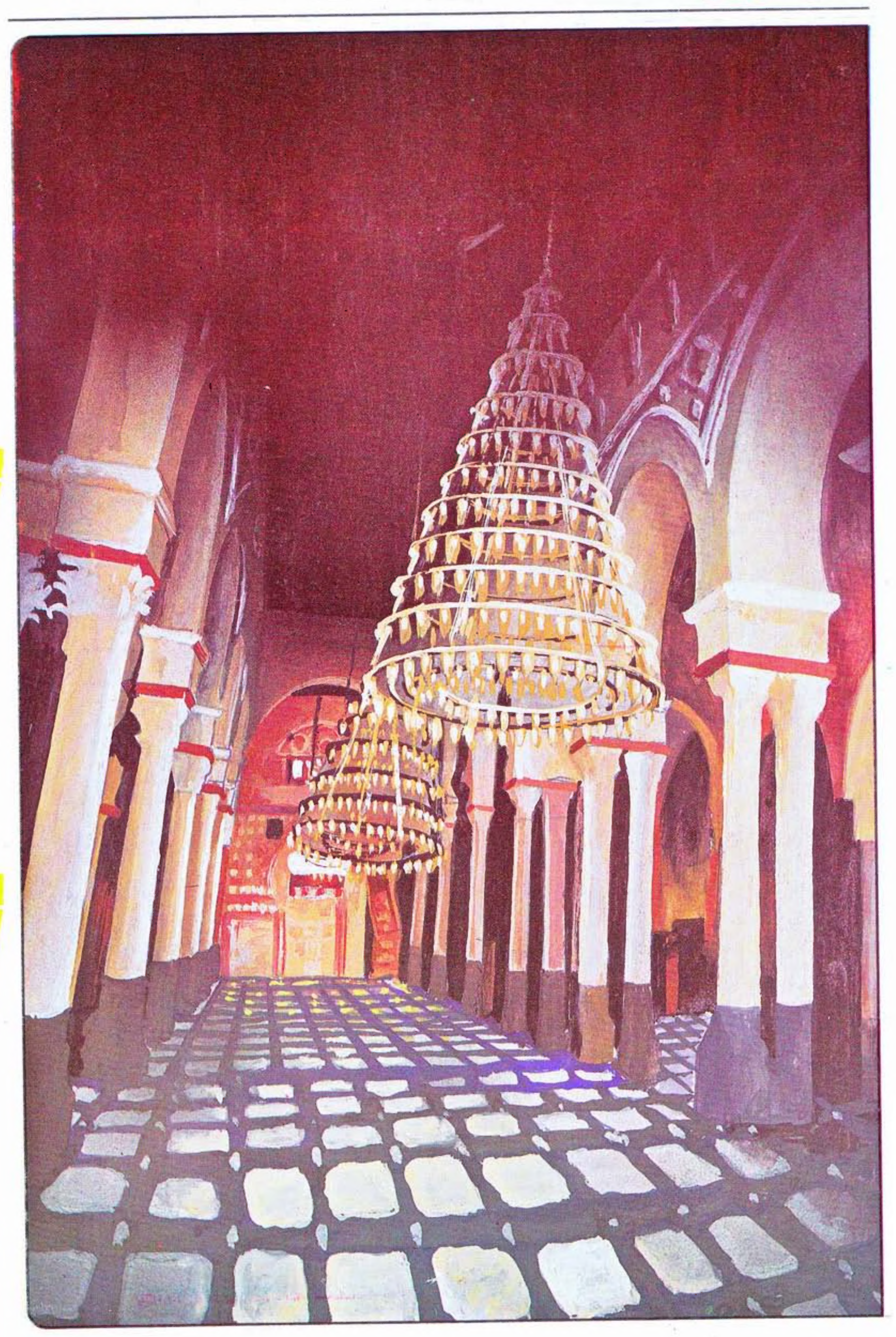
وانطلق المسلمون ومعهم عقبة يبحثون عن مكان يناسب إقامة المدينة .. فاختار فريق منهم مكانًا قرب الساحل .. وهنا قال عقبة :

- أيها المسلمون إنكم تضعون أنفسكم مطمعًا لأعدائكم .. إن الأسطول البيزنطى يمكنه فى سهولة أن يهاجمكم من الساحل .. فابحثوا عن مكان آخر فى الداخل .

كان عقبة قد أدرك بخبرته ما يجب أن تكون عليه العاصمة إذا كان يرغب فى بقائها .. وهاهم المسلمون يجدون مكانًا فى الداخل فيه شجر كثيف .. وبعيدًا عن البحر .. وهناك أمر عقبة ببناء المدينة . وكان ذلك عام (٥٠هـ = ٦٧٠م) وأطلق عليها القيروان .

ويقاطع إبراهيم أستاذه متسائلا عن معنى كلمة «قيروان» ؟

ويجيب الأستاذ :



– إن لها رنيناً جميلا فى الأذن يا إبراهيم .. وهى فى اللغة مكان للسلاح ومحط الجيش .. وهى لفظة فارسية دخلت إلى العربية .. وتعنى أيضاً استراحة القافلة وموضع اجتماع الناس فى الحرب .

قال إبراهيم : كيف إذن خطط عقبة للقيروان ؟

قال الأستاذ : كان عليه أولا أن يخطط للمسجد .. فجعله فى منتصف المدينة .. وبجواره دار الإمارة .. ثم بيوت الناس .

وعمل عقبة على أن تضم القيروان مناطق تنتمى إلى القبائل العربية والبربرية .. فهناك منطقة لقحطان .. وأخرى لربيعة .. وثالثة لمُضر .. ورابعة للبربر .

وحرص عقبة على أن يشمل المسجد مدرسة لتعليم اللغة والدين إلى جانب الصلاة .

سأل إبراهيم أستاذه :

– وهل بقيت القيروان على حالها ومساحتها وتخطيطها عبر العصور ؟

تبسَّم الأستاذ قائلا :

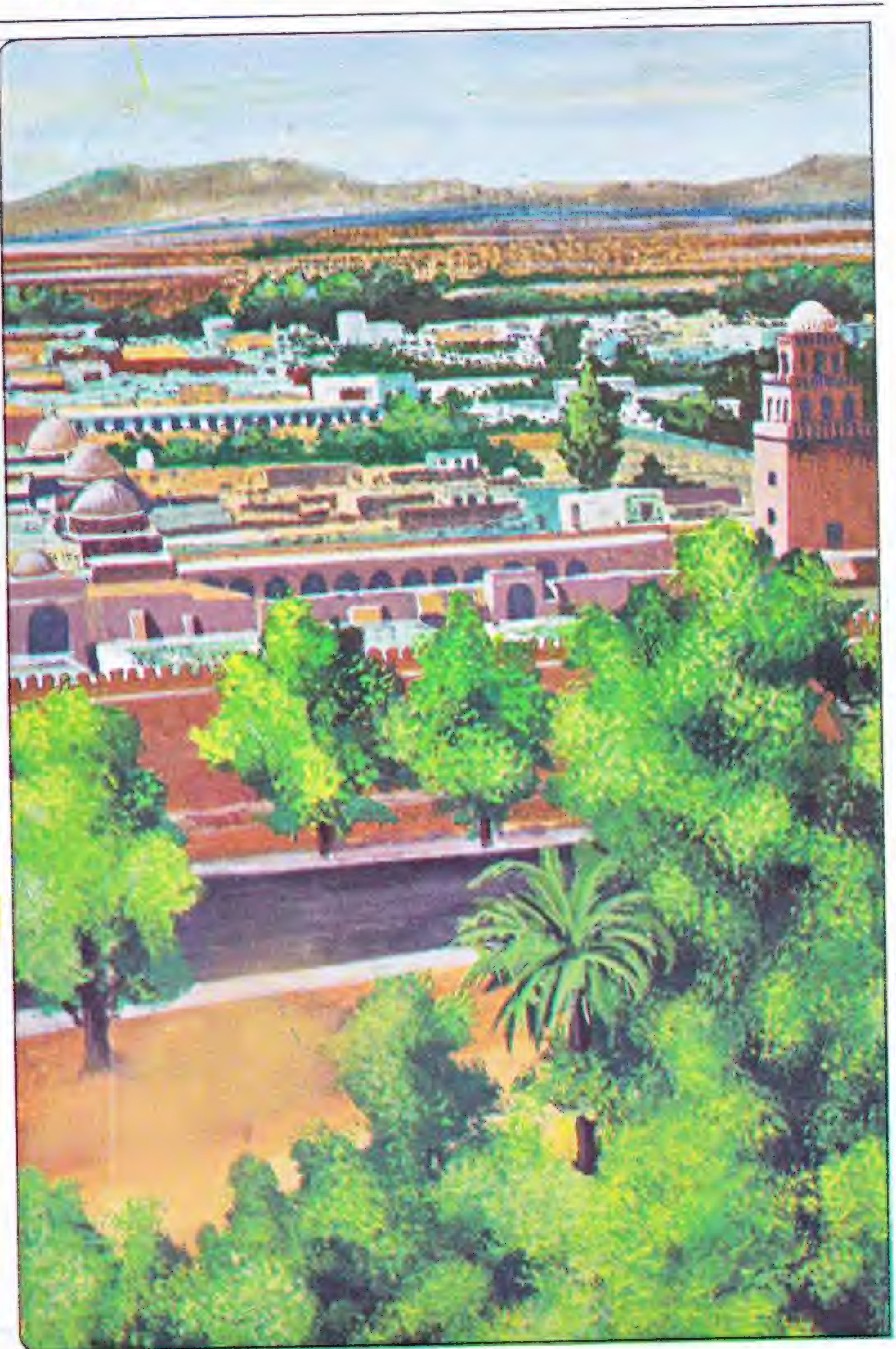
– ما الذى يمكن أن يبقى على حاله يا إبراهيم أمام تطور الحياة ؟ إن تاريخ القيروان يؤكد تطورها فى كل العصور .. حتى أصبحت من أهم المدن الإسلامية فى الشمال المغربى .. وتحولت إلى حاضرة سياسية مهمة .. بل كانت عاصمة لثلاث دول من أشهر دول المغرب العربى فى القرون الوسطى : دولة الأغالبة .. ودولة الفاطميين .. ودولة الصناهجة .

كانت القيروان صغيرة المساحة فى البداية .. ولم يمض وقت طويل حتى بلغت مساحتها نحو سبعة آلاف متر مربع .. وبلغت بيوتها نحو ثلاثة عشر ألفاً .

سأل إبراهيم : وماذا عن مسجد القيروان ؟ لابد أن له أثراً مهما فى انتشار الإسلام وتعليم القرآن والحديث .

قال الأستاذ : إن لهذا المسجد حكاية طويلة ترتبط بكل العصور والحكام .

لقد بدأ المسجد صغير المساحة .. بسيط البناء .. ولم يمض على إقامته عشرون عاماً حتى



هدمه حسان بن نعمان الغسانى .. وأقام مكانه مسجداً جديداً فيما بين عامى (٧٨ : ٨٣هـ = ٦٩٧ : ٧٠٢م).

وفى عام (١٠٥هـ = ٧٢٤م) ضاق المسجد بالمصلين .. فأمر الخليفة هشام بن عبدالملك بزيادة مساحة المسجد .. وإضافة حديقة كبيرة فى شماله .. وصهريج للمياه فى الصحن .. وأقام المئذنة الخاصة .

وفى عام (١٥٥هـ = ٧٧٢م) أعيد بناؤه على يد يزيد بن حاتم .. وظل المسجد على حاله هذا إلى أن تولى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إمارة إفريقية (٢٠١ هـ = ٨١٧م) فزاد فيه .. وظلت التوسعات فى العصور المختلفة حتى أصبح يشغل اليوم مساحة مستطيلة غير منتظمة تتراوح أضلاعها ما بين (٧٠ و ١٢٢) متراً .

ويُعتبر جامع القيروان من أقدم مساجد المغرب الإسلامى .. والمصدر الأول الذى اقتبست منه العمارة المغربية والأندلسية عناصرها الزخرفية والمعمارية .

قال إبراهيم : قد قرأت فى رسالة صديقى التونسى .. أن القيروان قد ازدهرت فى عصر المعز بن باديس الصنهاجى .

قال الأستاذ : نعم يا إبراهيم .. ففى عصر هذا الرجل تطورت الحياة الثقافية والعلمية والدينية كثيراً .. وكانت القيروان فى عهده وجهة العلماء والأدباء .. ربما لاهتمام الحاكم نفسه بالعلم والأدب .

وفى عصره اشتُهر شعراء كبار مثل : ابن شرف - وابن رشيق - وإبراهيم المصرى وغيرهم .

قال إبراهيم : لقد قرأت - أيضاً - يا سيدى أن المدن مثل الكائنات الحية تمر بأوقات نعيم وشقاء .. ونمو وانحطاط .. فهل ينطبق هذا على القيروان ؟

قال الأستاذ : فعلا يا إبراهيم .. فمثلا يمثل عصر الفاطميين فى القيروان عصر ذبول الحياة الأدبية والعلمية .. (القرن ٤ هـ = ١٠م) وشهد بذلك المؤرخون .. فحينما أحس الفاطميون أن الفقهاء فى القيروان لهم نفوذ على السلطة الحاكمة على مذهب الإمام مالك .. سعَوا إلى


البحر الأبيض المتوسط
طبرق
باجة
الجديدة
وادي مجردة
عين الدراهم
تونس
قرطاجنة
زغوان
الكاف
الجزائر
القيروان
تونس
سبيطلة
القصرين
الجم
صفاقس
جزر قرقنة
قفصة
جزيرة جربة
قابس
شط الجريد
مدنين

تخريب المدينة .. وتركوها إلى الصناهجة ..

وقاطعه إبراهيم قائلا :

لقد قرأت أن الخليفة عمر بن عبدالعزيز كان قد أرسل إلى القيروان بعثة تعليمية مكونة من عشرة فقهاء .

قال الأستاذ : إنها طبعًا إحدى المحاولات لإنهاء الصراعات الداخلية فى القيروان .. وقد كان مسجد عقبة ميدانًا لهذه الحلقات العلمية والدينية والتى ضمت فقهاء كباراً مثل :

إسماعيل بن مهاجر المخزومى .. وحيان بن أبى جبلة القرشى .. وبكر بن سوادة التجيبى .. وصاحب هذه الحلقات .. حلقات أخرى لعلوم اللغة باعتبارها أساس حفظ القرآن والتفسير والحديث .. وكان أبو على الحسن البصرى من أشهر اللغويين .

قال إبراهيم : وهل كان المسجد وحده مجالا لكل هذه الحلقات ؟

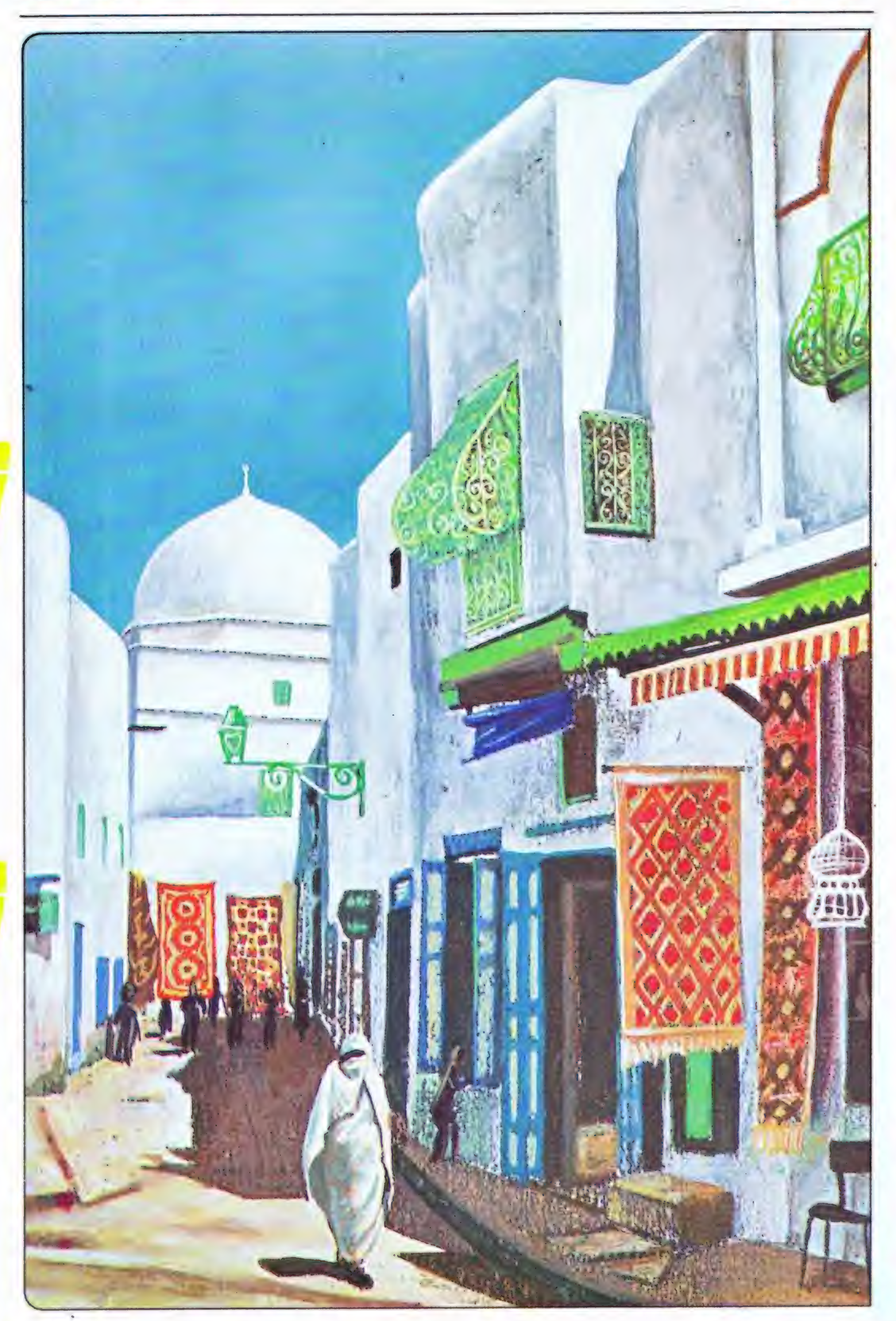
قال الأستاذ : فى الحقيقة .. منذ أن استقر العرب فى القيروان .. نشأت الكتاتيب الإسلامية لتحفيظ القرآن وتعليم مبادئ اللغة للصغار .. وتكاثرت فى عصر حسان بن النعمان (٨٥هـ = ٧٠٤م) ، وتعلم فيها أبناء العرب والبربر على السواء . وكان المسجد يمثل المجال الثانى فى التعليم .. حيث ضم الشيوخ والفقهاء وهم يتحدثون فى التفسير والحديث والفقه واللغة .. ويتحلق حولهم الشباب والناشئة .. ثم كثرت بعد ذلك فى القيروان وغيرها المساجد والمدارس الملحقة بها .

ومن بين دور العلم المهمة فى القيروان .. بيت الحكمة الذى أنشأه إبراهيم الثانى الأغلبى.. محاكاة لدار الحكمة فى بغداد التى أسسها هارون الرشيد .

وكان هذا البيت نواة لمدرسة الطب القيروانية التى أثرت فى الحركة العلمية فى المغرب لزمن طويل .

وفى عهد على بن يحيى الصنهاجى (٥١٠هـ : ٥١٥هـ) أنشئت مدرسة الكيمياء وزودت بآلات تحليل المعادن وأدوات التقطير المختلفة .

وفى القيروان تأسست المكتبات العامة .. والمكتبات الملحقة بالجوامع والمدارس والزوايا ..



وكانت مفتوحة للدارسين وتضم نفائس وأمهات الكتب .. ومن أشهر المكتبات : المكتبة العتيقة فى جامع عقبة والتى لا تزال تُفتح حتى اليوم .

وكان بعض العلماء حريصًا على جمع الكتب وتكوين مكتبات خاصة .. ومن هؤلاء الطبيب أحمد بن الجزار المتوفَّى فى القيروان (٣٦٩هـ = ٩٧٩م) .

قال إبراهيم : إذن كانت القيروان مركزًا كبيرًا للعلم والعلماء والأطباء .

قال الأستاذ : هذا صحيح يا إبراهيم .. فقد ذكر المؤرخون مثلا إسحاق بن عمران الذى كان بارعًا فى الطب وعلوم الأوائل والفلسفة .. وكان يعاصره فلكى كبير من مواليد القيروان هو إسماعيل بن يوسف .

وتتوارث أسرة الجزار مهنة الطب .. ومن أشهر أبنائها أحمد بن إبراهيم الجزار المولود (٢٨٥هـ = ٨٩٨م) ويُروى عنه أنه بنى عند باب داره عيادة لاستقبال المرضى وأفرد بها قسمًا للصيدلة تخدم هذه العيادة .

أما عن رواد اللغة والنحو والفقه بالقيروان فهم كثيرون .

ويطالعنا عدد كبير من الرَّحَّالة الذين رووا الكثير عن القيروان ونهضتها التعليمية .. منهم الإدريسى الجغرافى الأندلسى أبو بكر البكرى .. فقد تناول القيروان فى زمنه ووصف لها أربعة عشر بابًا وسورًا كبيرًا .

قال إبراهيم : إنها عصور مزدهرة حقا .. لكننى قرأت أيضًا أنه فى زمن الهلاليين فسد فى القيروان كل شىء .

قال الأستاذ : كان ذلك فى أواخر عصر الصناهجة .. حيث حاصر الهلاليون القيروان عدة شهور حتى سقطت .. فأفسدوا ضواحيها .. واستولوا على بيت الحكمة .. وفر كثير من السكان إلى خارج القيروان واتجهوا إلى سوسة والمهدية وتونس .. ومثل ذلك ولا شك محنة قاسية على القيروان .. حيث أصبحت مدينة متواضعة داخل سور مهدم بعد أن كانت منارة العلم والصناعة والحضارة .

لكن الأمور يا إبراهيم لا تستمر على حال واحدة .

ولن يستطيع العدوان مهما يبلغ من القوة أن يمحو آثار العلم والحضارة .

لقد عاشت القيروان بفضل تاريخها الإسلامى المجيد تتحدى كل هذه المحن .

يشهد بذلك جامع عقبة الكبير بالقيروان .. الذى يُعتبر من أهم المعالم الإسلامية فى تونس وشمال المغرب .

ويشهد بذلك جامع سيدى الصاحب .. الذى شيِّد على ضريح أبى زمعة الصحابى .. ويُعرف بجامع صاحب الشعرات .

ويشهد بذلك مسجد ابن خيرون الذى له ثلاثة أبواب .. وبُنى فى القرن الثالث الهجرى الحادى عشر الميلادى .

ويشهد بذلك مسجد سيدى عبيد الغريانى الذى شُيد فى القرن العاشر الهجرى الثامن عشر الميلادى .

وتشهد بذلك فسقية الأغالبة لتؤكد اهتمامهم بتزيين المدينة وتجميلها .

أما أسواق القيروان فهى كثيرة .. ومتفردة فى تنوع منتجاتها .. خاصة السجاد والمنسوجات .

والقيروان مركز سياحى متميز بين مدن شمال إفريقيا .

أحس إبراهيم أن أسئلته التى كان قد أعدها قد بلغت نهايتها .. وكان حريصًا على أن يُدون ملاحظاته فى أثناء إجابات أستاذه .. لهذا وجد أستاذه يفاجئه ويقول :

– مارأيك يا إبراهيم لو تكتب بحثًا عن القيروان من خلال تلك المعلومات ومن خلال قراءاتك .. وبفضل تلك الرسائل التى تتبادلها مع صديقك التونسى ؟

وسعد إبراهيم بهذا الطلب .. فهو يريد فعلا أن ينظم هذه المعلومات ويسجلها .. ويلحق بها بعض الصور لهذه المدينة .. ويضعها أخيراً فى مكتبة الكلية لعلها تكون مرجعًا مفيداً لمن يريد أن يعرف القيروان .. باعتبارها مدينة إسلامية لعبت دوراً مهما فى التاريخ الإسلامى فى الشمال المغربى .

لقد أدرك إبراهيم كم هى مفيدة هواية المراسلة .

هذه المدينة

اسـتـرحْ في سـاحـة القـيـروانْ
وأجـبْ حـين يـنـادى الأذانْ
ذلك الحب .. وهذا الأمـانْ
إنهـا التـاريخُ ملء الزمـانْ
إنهـا حين يُشـارُ .. البنانْ
وهى لا يصمت عنها البيـانْ
أيهـا الـزائرُ هـذا المكـانْ
اقـرأ القـرآن عـذب اللسـانْ
واذكـر التـاريخ فى كل آنْ
وأقم فى سـاحـة القـيـروانْ
صـولجـان الدين فى مـهـرجـانْ

رقم الإيداع : ٩٣/١٠٢٩٢
الترقيم الدولى : 977-261-275-5

كان الإسلام -ولايزال- ضوءاً ساطعًا بالهدى والعلم والحضارة والتقدم. وحيثما كان يهبط هذا الضوء تُقام المآذن ويرتفع صوت الإيمان بالتهليل والتكبير ويرتفع الحق شامخًا فوق الباطل.

وهذه بعض المدائن الإسلامية التى لعبت دوراً تاريخيا فى انتشار الإسلام وتأكيد قيمه وإعلاء كلمته نقدمها اليوم إلى الناشئة لتعرُّف هذه الملامح الخالدة لحضارة الإسلام.

اقرأ فى هذه السلسلة :

١ - مكة المكرمة
٢ - المدينة المنورة
٣ - القدس
٤ - الفسطاط
٥ - القيروان
٦ - سراييڤو
٧ - استانبول
٨ - غرناطة

٥ ش جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة
ت : ٣٣٥٣٧١١-٣٣٥٣٧١٢- فاكس : ٣٤٨٠٢٩٩ ص.ب:٤٢٥ الدقى